﴿إِنَّ يَوْمَ ٱلْفَصْلِ مِيقَٰتُهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٤٠﴾ يَوْمَ لَا يُغْنِى مَوْلًى عَن مَّوْلًى شَيْـًٔا وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ ﴿٤١﴾ إِلَّا مَن رَّحِمَ ٱللَّهُ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٤٢﴾﴾ [الدُّخان: 40 - 42]

❁ مُناسَبَةُ الآياتِ لِما قبلَها:

بيانُ عاقبةِ الكُفّارِ يومَ القِيامَةِ

لمّا ثبت البعث بالحجج الواضحة السّاطعة؛ أعقبه سبحانه بذكر ما يتعرَّض له الكافر يوم القيامة مِن أهوالٍ بفقد الأعوان والنُّصراء[1]، ثمَّ إنَّ الآيةَ ورادةٌ جوابًا عن سؤالٍ مقدَّر، فكأنَّه قيل: إنّا نرى أكثر المظلومين يموتون بمرير غُصَصِهم مقهورين، وأكثر الظّالمين يذهبون ظافرين بمطالبهم مسرورين، فمتى يكون هذا الحقُّ؟ قال جوابًا عن ذلك: ﴿إِنَّ يَوْمَ ٱلْفَصْلِ مِيقَٰتُهُمْ أَجْمَعِينَ﴾[2].

❁ شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿ٱلْفَصْلِ﴾: (فصل) أصل يدلُّ على تمييز شيءٍ من شيء وإبانته عنه[3]، فالفصلُ: إبانة أحد الشَّيئين مِن الآخر، حتَّى يكون بينَهما فُرجة، ويُقال: فَصَلْتُ الشَّيء عن الشَّيء، فانفصل؛ إذا قطعتَهُ فانْقَطَع، والفَصل: واحد الفصول، والفصل مِن الجسد: موضع المِفصَلِ، والمِفْصَلُ: واحد مفاصل الأعضاء، وفَصَلَ القومُ عن المكان وانفصلوا؛ أي: فارقوه وخرجوا مِنْهُ، وفَصْلُ الخطاب: ما فيه قطع الحُكم، يُقال: حُكمٌ فَيْصَلٌ، والفيصلُ: الحاكِمُ، ولسانٌ مِفصَل[4]، والفَصْلُ: القضاء بين الحقِّ والباطل[5]، ومعنى:

(1) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 27/ 663، والزحيلي، التفسير المنير: 25/ 235.
(2) البقاعي، نظم الدُّرر: 18/ 41.
(3) ابن فارس، مقاييس اللغة: (فصل).
(4) الجوهري، الصحاح، والراغب، المفردات، والسمين الحلبي، عمدة الحفاظ: (فصل).
(5) الأزهري، تهذيب اللغة، وابن منظور، لسان العرب: (فصل).

﴿ٱلۡفَصۡلِ﴾؛ أي: اليوم الذي يُبيَّن فيه الحقُّ والباطلُ، ويُفصَل فيه بين النّاس بالحُكم، ويومُ الفصلِ هو يومُ القيامة[1].

2) ﴿مِيقَٰتُهُمۡ﴾: (وقت) تدور تصريفاتُه على حدِّ الشَّيء وكُنْهِه في زمانٍ وغيره[2]، ومِنْهُ: الوقتُ؛ وهو مقدارٌ مِن الزَّمان، ونهاية الزَّمان المفروض للعمل؛ ولهذا لا يكاد يقال إلّا مقيَّدًا، نحو قولهم: وقَّتُّ كذا؛ أي: جعلتُ له وقتًا، وكلُّ شيء قدَّرتَ له حينًا؛ فهو مؤقَّت، وكذلك ما قدَّرتَ غايتَه، فهو مؤقَّت، والميقاتُ: الوقت المضروب للشَّيء، والوعدُ الذي جُعِلَ له وقت.

ومعنى: ﴿مِيقَٰتُهُمۡ﴾؛ أي: وقتُ موعدهم[3]، وقد يُقال الميقات للمكانِ الذي يُجعل وقتًا للشَّيء، كميقات الحجِّ، تقول: وقَتَه فهو موقوت؛ إذا بيَّن للفعل وقتًا يُفعل فيه، والتَّوقيت: تحديد الأوقات، تقول: وقَّتُّه ليوم كذا، مثل: أجَّلتُه[4].

3) ﴿مَوۡلًى﴾: (ولي) أصلٌ يدلُّ على معنى القُرْب، ومِنْهُ: الوَلْيُ؛ وهو القُرب والدُّنوُّ، يقال: تباعَدَ بعد ولْيٍ، ويقال: ولِيَه يَلِيه[5]، والوَلِيُّ: النَّصير؛ وهو ضِدُّ العَدوِّ، والولاية: النُّصرة، وكذلك الوَلِيُّ: الصَّديق والمحبُّ التّابع، وهو ضِدُّ العَدوِّ أيضًا[6]، والوَلِيُّ والمَوْلى يستعملان بمعنًى واحدٍ عند العرب، والمَوْلى: المُعتِق، والمُعتَق، والنّاصر، والجارُ، والحليف، والوِلاية والوَلاية: النُّصرة[7]، ومعنى: ﴿مَوۡلًى﴾؛ أي: قريبٌ أو صديقٌ[8].

❁ المَعْنى الإجْماليُّ:

يخبرنا الله ﷻ في هذه الآيات عن يوم القيامة مبيِّنًا أنَّه اليوم المحدَّدُ والمؤقَّت للقضاء بين جميع الخلائق بما قدَّموا في دنياهم من خير أو شرٍّ، وهو اليوم الَّذي لا ينفع فيه قَريبٌ

(1) البغوي، معالم التنزيل: 16/ 147، والنسفي، مدارك التنزيل وحقائق التأويل: 3/ 293، والراغب، المفردات: (فصل).
(2) ابن فارس، مقاييس اللغة: (وقت).
(3) الأزهري، تهذيب اللغة، والجوهري، الصحاح، والراغب، المفردات، والسمين الحلبي، عمدة الحفاظ، وابن منظور، لسان العرب: (وقت)، والنسفي، مدارك التنزيل وحقائق التأويل: 3/ 293.
(4) الجوهري، الصحاح، وابن منظور، لسان العرب: (وقت).
(5) ابن فارس، مقاييس اللغة، والأزهري، تهذيب اللغة، والجوهري، الصحاح: (ولي).
(6) الأزهري، تهذيب اللغة، والجوهري، الصحاح، وابن منظور، لسان العرب، والزبيدي، تاج العروس: (ولي).
(7) ابن منظور، لسان العرب: (ولي).
(8) البغوي، معالم التنزيل: 7/ 235، والقرطبي، الجامع لأحكام القرآن: 16/ 147.

قَريبَهُ بأن يدفع عنه شيئًا من العذاب وغيره مِمّا نزل به، ولا هم كذلك يُمنعون من عذاب الله إذا نزل بهم في ذلك اليوم إلّا مَنْ رحمه الله تعالى بالعفو عنه، وقبل الشَّفاعة في حقِّه من عباده المؤمنين؛ لأنَّه سبحانه العزيز في انتقامه من الأعداء، الرَّحيم بعباده الأولياء[1].

في يوم القيامة يُقضَى بين النّاس، ويُفقد النُّصراء والأعوان، ويُكرم عبادُ الرَّحمن

تقريرُ ما يكون مِن بيانِ الحقِّ يوم القيامَةِ

❁ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغِيُّ:

علَّة فصل قوله تعالى: ﴿إِنَّ يَوْمَ ٱلْفَصْلِ﴾ عمّا قبلَهُ:

فُصِل قوله تعالى: ﴿إِنَّ يَوْمَ ٱلْفَصْلِ﴾ عن سابقه؛ لأنَّ هذه الجملة تتنزَّل مِن التي قبلها منزلة النَّتيجة مِن الاستدلال[2]؛ فإنَّ المقصود مِن قوله تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَٰعِبِينَ ﴿٣٨﴾﴾ [الدخان: 38] إثباتُ القول بالبَعث والقيامة؛ لأنَّ نفي اللَّعب والعبَث عن خلق السَّماوات والأرض يقتضي وجودَ حكمة لخلقها على هذا النَّحو؛ فلا جَرَم ذَكَر عَقِيْبه قولَه تعالى: ﴿إِنَّ يَوْمَ ٱلْفَصْلِ مِيقَٰتُهُمْ أَجْمَعِينَ﴾[3].

فالمعنى: فيوم الفصلِ ميقاتُهم إعلامًا لهم بأنَّ يوم القضاء هو أجَلُ الجزاء، فهذا وعيدٌ شديدٌ لهم.

ويجوزُ أن تكون الآية قَدْ فُصلَت عمّا قبلَها؛ لوقوعِها استئنافًا بيانيًّا، وذلك لأنَّ قوله سُبحانَهُ: ﴿وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَٰعِبِينَ ﴿٣٨﴾ مَا خَلَقْنَٰهُمَآ إِلَّا بِٱلْحَقِّ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٩﴾﴾ [الدخان: 38 - 39] يبعَثُ في نفسِ السّامعِ سؤالًا، حاصلُهُ: إنّا نرى أكثر المظلومين يموتون بمرير غُصَصِهم مقهورين، وأكثرَ الظّالمين يذهبون ظافرين بمطالبهم مَسْرورين، فمتى يكون هذا الحقُّ؟ فجاء الجواب في قول الله ﷻ: ﴿إِنَّ يَوْمَ ٱلْفَصْلِ مِيقَٰتُهُمْ أَجْمَعِينَ﴾، فكان بينَ الجملتينِ شبهُ كمال الاتِّصالِ.

(1) البغوي، معالم التنزيل: 7/ 235، والهرري، حدائق الروح والريحان: 26/ 387 - 389.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 25/ 311.
(3) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 27/ 663.

نكتة توكيد جملة ﴿إِنَّ يَوْمَ ٱلْفَصْلِ﴾ بـ﴿إِنَّ﴾:

تأكيدُ إثباتِ البعثِ للكفّار، ودحضِ ما لديهم مِن إنكار

جاءت جملة ﴿إِنَّ يَوْمَ ٱلْفَصْلِ﴾ مؤكَّدة بـ﴿إِنَّ﴾؛ لأنَّ المخاطَب بها منكِرٌ للبَعث والنُّشور والحساب والجزاء[1]، فجاء تأكيدُ الخبرِ لردِّ إنكارهم، وإثبات أنَّ يوم القيامة هو ميعادهم، ووقتُ حسابِهم وجزائهم جميعًا، كما أنَّه اليوم الذي يفصِل الله تعالى فيه بين الخلائق؛ ليميز سبحانه الخبيثَ مِن الطَّيِّب، والمحسنَ مِن المسيء، والمُحِقَّ مِن المُبطِل[2].

سرُّ التَّعبير عن يوم القيامة بيوم الفصل:

الفصلُ والتَّمييزُ أنسبُ لمضمونِ السّـورةِ ومطلَعِها

أوثِرَ التَّعبير عن يوم القيامَةِ بيوم الفصل؛ لأنَّه المعنى الأبرَز في السّورة؛ فالآيات التي سبقت هذه الآيةَ ذكرَتْ إنكارَ المُشْرِكين للبَعْثِ والحِسابِ والجَزاء، ومواجهة الرَّسول ﷺ لهم بالكِبر والاستعلاءِ، واشتملَت كذلك على ذكرٍ لفرعون ومَلئه، وما وقع بينه وبين الكليم موسى عليه السلام، واشتملت أيضًا على ذكرٍ لقوم تبَّع، فجيء به للإشارة إلى ما في هذا اليوم مِن حساب وعقابٍ، وفصلٍ وحكمٍ، كما أنَّ كلمة الفصل أشبه بطالعةِ السّورة؛ لأنَّ الفصلَ هو معنى قوله تعالى: ﴿فِيهَا يُفْرَقُ كُلُّ أَمْرٍ حَكِيمٍ ۝٤﴾ [الدخان: 4][3]، وكذا ما جاء في قوله تعالى: ﴿بَلْ هُمْ فِي شَكٍّ يَلْعَبُونَ ۝٩﴾ [الدخان: 9]، فلا جَرَم أن يكون يومٌ يُفصَل فيه باليقين الذي يمحَق الشَّكَّ، وبالجِدِّ الذي يقطع الهزل، وبالحقِّ الذي يُزهِقُ الباطل.

فالحاصل أنَّه عُبِّر بـ﴿يَوْمَ ٱلْفَصْلِ﴾؛ لأنَّه يقع فيه "فصلُ الحقِّ عن الباطل، أو المُحِقِّ عن المُبطِل بالجزاء، أو فصل الرَّجُل عن أقاربه وأحبّائه"[4].

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 25/ 311.
(2) المراغي، تفسير المراغي: 25/ 133.
(3) محمد أبو موسى، آل حم (الشورى، الزخرف، الدخان)، دراسة في أسرار البيان، ص: 651.
(4) البيضاوي، أنوار التنزيل: 5/ 103.

والسّورة مِن أوَّلها إلى آخرها فيها فريقان: فريق المؤمنين، وفريق الكافرين، وفي يوم القيامة يَفْصِل اللّهُ سُبْحانه بينَهما؛ فـ﴿فَرِيقٌ فِي ٱلْجَنَّةِ وَفَرِيقٌ فِي ٱلسَّعِيرِ ۝٧﴾ [الشّورى: 7].

دلالة التَّعبير بالميقات مادَّةً وصيغةً:

الميقاتُ موعدٌ مؤجَّل لوقتٍ معلومٍ

مادَّةُ (وقت) تدلُّ على حدِّ شيءٍ وكُنْهِهِ في زمانٍ وغيره، منه الوقت؛ وهو الزَّمان المعلوم، والموقوت: الشَّيء المحدود، والميقات: المصير للوقت، يقال: وقَّت له كذا ووقَّته؛ أي: حدَّده[1]، والمعنى المحوريُّ للجذر هو: تحديد زمنٍ معيَّن دقيقٍ لإيقاع الشَّيء[2].

و(الميقات) على وزن اسم الآلة مِن (وَقَّتَ)، وسمَّى العربُ به الوقت، وكذلك سُمِّي الشَّهر شهرًا مشتقًّا من الشُّهرة؛ لأنَّ الذي يرى هلال الشَّهر يُشَهِّره لدى النّاس، وسمَّى العربُ الوقتَ المعيَّن ميقاتًا على وجهِ المبالغةِ، وإلّا فهو الوقتُ عينُه.

وذهب بعضُ أهل العربيَّةِ إلى أنَّ الميقاتَ أخصُّ مِن الوقت؛ لأنَّه وقتٌ قدِّر فيه عملٌ مِن الأعمال، فعليه يكون صوغُه بصيغةِ اسم الآلة اعتبارًا بأنَّ ذلكَ العملَ المعيَّن يكون وسيلةً لتحديد الوقت، فكأنَّه آلةٌ للضَّبط[3]، وهو مِن دقائق العربيَّة[4].

والحاصل أنَّ المقصود بالميقات في الآيةِ: هو وقتُ موعدِهم الذي ضُرِب لهم في الأزَل للفصلِ بينَ الخلائقِ[5]، وفيه ردٌّ على إنكارهم، ووعيد أكيد لهم.

نوع الإضافة ودلالتها في ﴿مِيقَٰتُهُمْ﴾:

تخصيص الكفّار أدخَلُ في الوعيدِ والتَّهديدِ

الإضافة في قوله تعالى: ﴿مِيقَٰتُهُمْ﴾ إضافةٌ يُرادُ بها التَّخصيصُ،

(1) ابن فارس، مقاييس اللغة: 6/ 132.
(2) محمد حسن محمد جبل، المعجم الاشتقاقي: (وقت).
(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 2/ 196.
(4) الشِّهاب الخفاجي، عناية القاضي وكفاية الراضي: 10/ 8.
(5) البقاعي، نظم الدرر: 41/ 18، والخطيب الشربيني، السراج المنير: 3/ 588.

والمقصود أنَّه موعد الخلق أجمعين؛ المؤمنِ والكافرِ، والبَرِّ والفاجرِ، ليواجه كلٌّ جزاءَ ما قدَّم؛ فإمّا نارًا وزقّومًا وإمّا جنّاتٍ ونعيمًا[1]، فأضيفَ الميقاتُ إلى الضَّمير العائد على المُنكرين للبعث؛ لأنَّ الخطاب خطاب وعيد، وهم المقصودون مِن هذا الوعيد[2]؛ فلذلك خصَّهم بإضافةِ الضَّمير إليهم دونَ المؤمنين، كأنَّه قال: إنَّ يومَ فصلِ المرءِ عَن أحبابِه وذَويه ميقاتُ الكافرين المعاندينَ أجمعين، فهم - وإن أنكروه - فإنَّه مِن الأزَل مضروبٌ لهم، وإنَّهم ملاقوه لا محالةَ.

دلالة توكيد الضَّمير في ﴿مِيقَٰتُهُمۡ﴾ بـ﴿أَجۡمَعِينَ﴾:

جاء التَّأكيد بـ ﴿أَجۡمَعِينَ﴾ للتَّنصيص على الإحاطة والشُّمول؛ أي: أنَّه ميقاتٌ لجزائهم كلِّهم لا يُفلت منه أحدٌ منهم؛ تقويةً في الوعيد، وتأييسًا مِن الاستثناء[3]، كما أنَّه لا يتخلَّف عنه أحد ممَّن مات مِن الجنِّ والإنس والملائكة وجميع الحيوانات[4].

لا يُستثنى مِنَ الحَشْر الأُخرويِّ أحدٌ

نكتة حذف متعلَّق الميقات:

حُذِفَ متعَلَّقُ الميقاتِ لظهورِه مِن المقامِ، ولدلالة السِّياق عليه، والتَّقدير: إنَّ يوم الفصل مِيقاتُ جزائهم أجمعينَ[5]، ولإفادة التَّعميم أيضًا؛ فيوم القيامة ميقاتُ الخلائق جميعًا دون استثناء، للبعثِ والحساب والجزاء، وقد جيء بعد ذلك بِمؤكِّداتٍ عدَّةٍ تقويةً لِهذا العموم.

حُـذِف متعلّق المـيقاتِ مُـؤذنٌ بالعمومِ

علَّة فصل قوله: ﴿يَوۡمَ لَا يُغۡنِي مَوۡلًى عَن مَّوۡلًى شَيۡـٔٗا﴾ عن سابقه:

فُصل قوله: ﴿يَوۡمَ لَا يُغۡنِي مَوۡلًى عَن مَّوۡلًى شَيۡـٔٗا﴾ عن سابقه؛

زيـادَةُ البَيـانِ بذِكْرِ ما يَحْمِل عـلى الـخـوفِ والرَّجاء

(1) مجمع البحوث، التَّفسير الوسيط: 9/ 863.

(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 25/ 311.

(3) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 27/ 663، والبقاعي، نظم الدّرر: 41/ 18، والخطيب الشربيني، السِّراج المنير: 3/ 588، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 25/ 311.

(4) البقاعي، نظم الدرر: 41/ 18، والهرري، حدائق الروح والريحان: 26/ 387، ودرويش، إعراب القرآن وبيانه: 9/ 134.

(5) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 25/ 311.

لكمالِ الاتِّصال بين الجملتين؛ فقوله تعالى: ﴿يَوْمَ لَا يُغْنِي﴾ بدلٌ مِن قوله: ﴿يَوْمَ ٱلْفَصْلِ﴾ أو عطفُ بيانٍ[1] أو هو منتصبٌ بفعلٍ يدلُّ عليه الفصل؛ أي: يفصل بينهم يومَ لا يغني أحدٌ عن أحد[2]؛ فإنَّه سبحانه لمّا ذكر هذا اليوم الذي دلَّ على عظمته؛ ذَكَر مِن وصفهِ ما يحمِل على الخوف والرَّجاء[3]، والمعنى: أنَّه لا ينفع قريبٌ قريبًا، ولا يدفع عنه شيئًا.

نكتة التَّعبير بالمضارع المنفيّ ﴿لَا يُغْنِي﴾:

نفي الإغناء يوم القيامَةِ بإطلاق

جاء التَّعبير بالفعل المضارع الذي يفيد التَّجدُّد منفيًّا بـ﴿لَا﴾ التي هي آكدُ وأعمُّ في النَّفي في قوله تعالى: ﴿يَوْمَ لَا يُغْنِي مَوْلًى عَن مَّوْلًى شَيْـًٔا﴾؛ لنفي وقوع الإغناء بأيِّ وجهٍ من الوجوه في ذلك اليوم الرَّهيب[4]؛ فلا يدفع قريبٌ عن قريبه، ولا صديقٌ عن صديقه، ولا ينفع أحدٌ أحدًا مطلقًا، فالمضارِعُ المَنْفِيُّ دالٌّ على استمرارِ النَّفي لا على نفيِ الاستمرارِ.

ونفيُ الإغناء عنهم من ناحيةِ أوليائهم فيهِ نفيٌ لحُدوثه مع محاولتهم واعتقادهم القدرةَ عليه، ففيه إضافةٌ لمَعْنى الحسْرَة والخيبة يوم القيامة بعد عَجْزِهم عن نَفْعِهم والإغناءِ عَنْهُم شيئًا.

سرُّ إيثار التَّعبير بـ﴿مَوْلًى﴾ ودلالة تنكيره في الموضعين:

المبالغة في نفي الإغناء، وقطعُ الطَّمع في شفاعةِ الشُّفعاء

تدور معاني الولاية حول الدَّلالة على القُربِ، فيُقال: تباعدَ بَعدَ ولْيٍ؛ أي: بعد قُرْب، وجَلَسَ ممّا يليني؛ أي: ممّا يقاربُني، ويُسْتَعار ذلك للقرب مِن حيث المكان، ومِن حيث النِّسبة، ومِن حيث الدِّين،

(1) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن: 16/ 148، والبقاعي، نظم الدرر: 41/ 18، وأبو السعود، إرشاد العقل السليم: 65/ 8، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 25/ 312، والهرري، الحدائق الروح والريحان: 26/ 388.

(2) القنَّوجي، فتح البيان: 12/ 407، والهرري، حدائق الروح والريحان: 26/ 388.

(3) البقاعي، نظم الدرر: 41/ 18.

(4) البقاعي، نظم الدرر: 41/ 18.

ومِن حيث الصَّداقة والنُّصرة والاعتقاد، والولاية: النُّصرة، والوليُّ والمَولَى: القريب والنَّصير، ويُستعملان في معنى الفاعل؛ أي: الموالِي، وفي معنى المفعول؛ أي: الموالَى[1].

والمولى في قوله تعالى: ﴿لَا يُغۡنِي مَوۡلًى عَن مَّوۡلًى شَيۡـٔٗا﴾ يعمُّ جميع الموالي مِن العَصَبات، والقرابات، وموالي العتق، وموالي الصَّداقة، وموالي الجِيرة، وموالي الدِّين[2]، "وكلُّ مَن ولِيَ أمرَ واحدٍ؛ فهو وليُّه ومولاه"[3].

فالمعنى: أنَّ الذي يُتَوقَّع منه النُّصرة هو القريبُ في الدِّين أو في النَّسب، أو المعتقُ، أو الصَّديقُ، أو المحبُّ، أو الجارُ، أو النَّصير ... إلخ، وكلُّ واحد مِن هؤلاء يُسمَّى (مَوْلًى)، فواحدٌ مِن هؤلاء - أيُّ واحدٍ كان - لا يُغني عن مولاهُ أيَّ مولًى كان شيئًا - ولو قليلًا - مِن الإغناء؛ فإذا لم ينفع بعضُ الموالي بعضًا ولم يُغنِ بعضُهم عن بعضٍ شيئًا مِن العذاب بشفاعتهم، ولم تحصل النُّصرة منهم - وهم الأقرباء الأحبّاء - كان عدمُ حصول ذلك ممَّن سواهم مِن البُعَداء أوْلى وأحرَى، وهذا في حقِّ الكُفّار، وهذه الآية شبيهةٌ بقوله تعالى: ﴿وَٱتَّقُواْ يَوۡمٗا لَّا تَجۡزِي نَفۡسٌ عَن نَّفۡسٖ شَيۡـٔٗا﴾ [البقرة: 48]، وبقوله سبحانه: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمۡ وَٱخۡشَوۡاْ يَوۡمٗا لَّا يَجۡزِي وَالِدٌ عَن وَلَدِهِۦ وَلَا مَوۡلُودٌ هُوَ جَازٍ عَن وَالِدِهِۦ شَيۡـٔٗاۚ﴾ [لقمان: 33][4].

فالحاصل أنَّ التَّعبير بالمولى أفادَ المبالغة في نفي الإغناء، وقطع الطَّمع في شفاعةِ الشُّفعاء.

وقد جاءت ﴿مَوۡلًى﴾ نكرةً في سياق النَّفي لإفادة العموم[5]؛ "أي: لا يُغني أحدٌ مِن الموالي كائنًا مَن كان عَن أحدٍ مِن مواليه كائنًا مَن كان"[6].

(1) ابن فارس، مقاييس اللغة، والراغب، المفردات: (ولي).
(2) ابن عطيَّة، المحرَّر الوجيز: 75/ 5.
(3) الفيروزآبادي، القاموس المحيط، ص: 344.
(4) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 27/ 663، والخطيب الشربيني، السراج المنير: 3/ 588، والآلوسيّ، روح المعاني: 13/ 129، والمراغي، تفسير المراغي: 25/ 133.
(5) الزمخشري، الكشّاف: 4/ 280، وأبو السعود، إرشاد العقل السليم: 65/ 8.
(6) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 25/ 312.

معنى ﴿عَن﴾ ودلالتها في ﴿عَن مَّوْلًى﴾:

إبعادُ العذابِ محالٌ؛ إذْ لا يُغني مولًى عن مولًى بحالٍ

الأصلُ في معنى (عن) أنَّه موضوعٌ للدَّلالة على البُعد والمجاوَزَة[1]، فالمعنى: أنَّه لا يقع مِن مولًى إبعادُ العذاب والكربِ يوم القيامة عن مولًى آخرَ، ولا يمكن جَعلُهُ يتجاوزُ العذابَ أو ما قدَّر الله له يوم الحساب.

نكتة تنكير ﴿شَيْـًٔا﴾:

يوم القيامة لا يُغني الأولياءُ أيَّ شيءٍ مِن الإغناء

أوثِرَ تنكيرُ ﴿شَيْـًٔا﴾ في قوله تعالى: ﴿يَوْمَ لَا يُغْنِى مَوْلًى عَن مَّوْلًى شَيْـًٔا﴾ لإفادة التَّقليل؛ أي: لا يُغني مولًى عن مولًى ولو شيئًا قليلًا مِن الإغناء[2]، وهذا التَّقليلُ هوَ الغالبُ في تنكير لفظ (شيء)، كما قال تعالى: ﴿وَشَىْءٍ مِّن سِدْرٍ قَلِيلٍ ﴿١٦﴾﴾ [سبأ: 16]، ووقوعُهُ في سياق النَّفي مفيدٌ العمومَ أيضًا؛ يعني: أيَّ إغناءٍ كان في القِلَّة بَلْهَ الإغناءَ الكثير، فعُدِلَ عن ذلك إلى التَّعميم لأنَّه أوسعُ فائدةً؛ إذ هو بمنزلة التَّذييل[3].

نكتةُ عطفِ قوله تعالى: ﴿وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ﴾:

المبالغةُ في نفي الإغناء، وتأكيدُ عدمِ نفع الأولياءِ

عُطِف قولُه تعالى: ﴿وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ﴾ على قوله تعالى: ﴿لَا يُغْنِى مَوْلًى عَن مَّوْلًى شَيْـًٔا﴾ لما بينَهُما من التَّوسُّط بين الكمالين؛ إذ الجملتانِ متَّفقتانِ في الخبريَّة، وبينهما تناسبٌ في اللَّفظ والمعنى؛ فأمّا المناسبةُ اللَّفظيَّةُ؛ فاتِّحادهُما في التَّعبير بالفعل المضارِع المسبوقِ بنفيٍ، وأمّا المناسبةُ المعنويَّةُ؛ فالجملةُ الثّانيةُ واردةٌ للزِّيادة في نفي عدم الإغناء؛ فلا هُم يُغني عنهم أولياؤُهم المظنونُ بهم ذلك، ولا ينصرُهم مقيَّضون آخَرون ليسوا مِن مواليهم تأخذُهم الحميَّة أو الغيرةُ أو الشَّفقة عليهم فينصرونهم، فمُحصّلُ المعنى:

(1) سيبويه، الكتاب: 4/ 226، والزمخشري، المفصل، ص: 385، وابن يعيش، شرح المفصل: 4/ 500، والسامرائي، معاني النحو: 3/ 54.

(2) أبو حيّان، البحر المحيط: 9/ 407، وأبو السعود، إرشاد العقل السليم: 65/ 8، والخطيب الشربيني، السراج المنير: 3/ 588، والآلوسيّ، روح المعاني: 13/ 129.

(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 25/ 312.

أنَّه لا يُغني موالٍ عن مَواليه بشيءٍ مِن الإغناء حسب مُستَطاعه، ولا ينصرُهم ناصِرٌ شديدُ الاستطاعة هو أقوى منهم يدفعُ عنهم غَلَبَ القوي عليهم، فاللهُ هو الغالبُ لا يدفعهُ غالب[1].

وقد ذُكِر نفيُ النَّصر بعد نفي إغناء الموالي؛ لأنَّ الإغناء تارةً يكون بالرِّفق وأخرى بالعنف، فجاء التَّصريح بالثّاني لأنَّه أعظمُهما، والسِّياقُ للإهلاك والقهر[2].

وثمَّ ملمَحٌ آخر؛ وهو أنَّ نفيَ إغناء الموالي بَعْضِهم عن بعضٍ قد يُتَوَهَّم منه أنَّ الوليَّ يستطيع أن ينصُرَ نفسَه دون أن ينصُرَ غيره، فجاء العطفُ قطعًا لهذا الطَّمع، ودرءًا لهذا الوهم، فلا هُم يَنصرون أنفسهم، ولا هُم يَنصرون غيرَهم، ولا هُم يَتناصرون فيما بينهم.

نكتة تقديم المسند إليه، ودلالة كونهِ ضميرَ جمعٍ في ﴿وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ﴾:

الكافرون بنفي النُّصرة والشَّفاعة مخصوصون، فلا جرَمَ أنَّهم هُم الأخسَرون

أوثرَ تقديمُ المسند إليه ﴿هُمْ﴾ على الخبر الفعليِّ ﴿يُنصَرُونَ﴾ لإفادة التَّخصيص، فإنَّ المقصودين هم الكافرون، وهؤلاء لا شفاعة بينهم يوم القيامة، ولا منجَى لهم مِن العذاب أبدًا، أمّا المؤمنون فيَشْفَعُ فيهم - بعد إذن الله سبحانه ورضاهُ - النَّبيّون والشُّهداء والصّالحون والملائكة، أمّا الكافرون فهم كما قال الله تعالى عنهم: ﴿فَمَا تَنفَعُهُمْ شَفَٰعَةُ ٱلشَّٰفِعِينَ ﴿٤٨﴾﴾ [المدّثر: 48] وقوله سبحانه: ﴿فَمَا لَنَا مِن شَٰفِعِينَ ﴿١٠٠﴾ وَلَا صَدِيقٍ حَمِيمٍ ﴿١٠١﴾ فَلَوْ أَنَّ لَنَا كَرَّةً فَنَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٠٢﴾﴾ [الشعراء: 100 - 102].

وعُبِّر بالجمع ﴿وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ﴾ بعد المفرد ﴿مَّوْلًى﴾ ليتناولَ القليلَ والكثيرَ منه؛ لأنَّ النَّفيَ عنه نفيٌ عن الأفراد مِن بابٍ أوْلى[3].

فالضَّميرُ للمَوالي؛ لأنَّهم في المعنى كثيرٌ؛ لتناوُلِ اللَّفظ على الإبهام والشُّيوع[4].

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 25/ 312.
(2) البقاعي، نظم الدرر: 41/ 18.
(3) البقاعي، نظم الدرر: 41/ 18.
(4) الزمخشري، الكشّاف: 4/ 280، والبيضاوي، أنوار التنزيل: 5/ 103، وأبو السعود، إرشاد العقل السليم: 65/ 8.

نكتة التَّعبير بالمسند الفعليّ ﴿يُنصَرُونَ﴾ ودلالة مجيئه مضارعًا:

مَن خرجَ عن حبل مودَّته، وحُرِمَ مِن لذَّة طاعته، حرَمَهُ من تأييدهِ ونصرته

أوثِرَ التَّعبير بالمسند الفعليِّ في قوله تعالى: ﴿يُنصَرُونَ﴾؛ ليُفيدَ الحدوث، وجيء به مضارعًا لإفادة التَّجدُّد؛ أي: ولا يتجدَّد لهم نصرٌ ظاهرًا ولا باطنًا بأنفسهم ولا بغيرهم[1]، فلا يمنعون ممّا نزل بهم مِن العذاب، ولا يملكون أن يشفع لهم غيرُهم[2].

وفي التَّعبير بالمسند الفعليِّ لإفادة تقوية الحكم وتوكيده عن طريق تكرار الإسناد، فإنَّ قوله تعالى: ﴿يُنصَرُونَ﴾ يعود على المسند إليه: ﴿هُمْ﴾، ثمَّ إنَّ الفعل ﴿يُنصَرُونَ﴾ مسند إلى واو الجماعة العائدة بدَورها إلى المسند إليه ﴿هُمْ﴾، فكأنَّ الإسناد قد تكرَّر مرَّتين، "مرَّةً عند إسناد الفعل إلى ذات المسند إليه، ومرَّةً عند إسناده إلى ضميره"[3]، وقد أفاد تكرارُ الإسنادِ هذا تقويةَ الحُكم وتوكيدَه؛ مبالغةً في نفي النُّصرة يوم القيامة عنهم بحالٍ مِن الأحوال.

والجملة توكيدٌ لِما قبلها، فالمعنى لا يَنصر المؤمنُ الكافرَ، ولو كان بينهما في الدُّنيا عُلقةٌ مِن قرابةٍ أو صداقةٍ أو غيرهما[4]، فهم محرومون مِن التَّأييد والنُّصرة مِن كلِّ وجه؛ وفي هذا تجدُّدٌ للحسرة والخذلان، وفيه تنبيهٌ كذلك إلى أنَّ النَّصر والتَّوفيق لا يكونان إلّا مِن الملك الحقِّ ﷻ.

دلالةُ بناءِ ﴿يُنصَرُونَ﴾ للمفعول:

البناء للمفعول للإيجاز وإفادة العموم؛ تحذيرًا مِن مغبَّة الجزاء المشؤوم

جاء قوله سبحانه: ﴿يُنصَرُونَ﴾ مبنيًّا للمفعول لإفادة التَّعميم؛ ليعمَّ نفي كلِّ ناصرٍ مع إيجاز العبارة[5]، فالاعتناءُ هنا بِنَفْيِ الفِعْلِ

(1) البقاعي، نظم الدرر: 12/ 422.
(2) الهرري، حدائق الروح والريحان: 26/ 389.
(3) حسن طبل، علم المعاني في الموروث البلاغيّ، ص: 125.
(4) صديق خان، فتح البيان: 12/ 407، والمراغي، تفسير المراغي: 25/ 133، والهرري، حدائق الروح والريحان: 26/ 389.
(5) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 25/ 312.

نفسِه دونَ النَّظر إلى فاعله، فلو قيل مثلًا: (زيدٌ لا ينصرُه أخوه)، فقد نُفِي أن يكون أخوهُ ناصرًا له، لكنْ لم يُنفَ حصولُ النُّصرة مِن غيره، بخلافِ ما لو قيل: (زيدٌ لا يُنصَر)؛ فقد نُفِيَ عنه النُّصرةُ بحال، والآية مِن هذا القبيل.

فبناءُ الفعل للمفعول أولى مِن بنائه للفاعل؛ لأنَّه أعمُّ، إلّا إنْ جُعِلَ الفاعل عامًّا، فيكون ولا هُم ينصرُهُم أحدٌ، فكان يفوتُ بذلك اختتامُ الفواصلِ بما اختُتِمَت به قبلُ وبعد، ويفوت الإيجازُ[1].

نكتة حذف متعلَّق ﴿يُنصَرُونَ﴾:

نفيُ كلِّ نصرٍ إطلاقًا وتأبيدًا

حذف متعلَّق فعل النَّصْرِ في قوله تعالى: ﴿يُنصَرُونَ﴾؛ لإرادة العموم، والتَّقدير: ولا هم يُنصرون مِن هول الموقف العظيم، ولا مِن الحساب، ولا مِن العذاب، ولا مِن أيِّ موقفٍ يَحْتاجون فيه إلى النَّصر.

ثمَّ إنَّ في هذا الحذفِ مراعاةً للفواصل، فتآزَرَ حُسنُ المبنى مع حُسنِ المعنى في نسجٍ بديعٍ، وقولٍ بليغ.

معنى الاستثناءِ ودلالتُه في ﴿إِلَّا مَن رَّحِمَ ٱللَّهُ﴾:

الاستثناء لإفادة تحقُّق الشَّفاعة لأهل الإيمانِ، والفوزِ برحمةِ الرَّحمن

الاستثناء في قوله تعالى: ﴿إِلَّا مَن رَّحِمَ ٱللَّهُ﴾ وقع عَقِبَ قوله تعالى: ﴿يَوْمَ لَا يُغْنِي مَوْلًى عَن مَّوْلًى شَيْـًٔا وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ﴾، ولمّا كانت هذه الآيةُ منتظِمَةً جملتَين كريمَتَيْن، فحقٌّ بأن يرجِعَ الاستثناءُ إلى ما يَصْلُح للاستثناء منه في تَيْنِك الجملتين، ولن يَخْرُجَ الاستثناء عن كونه متَّصِلًا أو منقطِعًا[2]، وعلى كلٍّ ففي الجملتين ثلاثةُ ألفاظٍ تصلُح لأنْ يُستثنى منها، وهي: **أوَّلًا**: ﴿مَوْلًى﴾ الأوَّل المرفوعُ بفعل

(1) أبو حيّان، البحر المحيط: 1/ 223.

(2) الفرّاء، معاني القرآن: 42/ 3، والواحدي، البسيط: 20/ 117، وابن عطيَّة، المحرَّر الوجيز: 75/ 5، والزمخشري، الكشّاف: 4/ 280، وأبو حيّان، البحر المحيط: 9/ 407، والقرطبي، الجامع لأحكام القرآن: 16/ 148، والبيضاوي، أنوار التنزيل: 5/ 103، وأبو السعود، إرشاد العقل السليم: 65/ 8، والخطيب الشربيني، السراج المنير: 3/ 589، والآلوسيّ، روح المعاني: 13/ 12، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 25/ 313.

﴿يُغۡنِي﴾، **وثانيًا**: ﴿مَّوۡلًى﴾ الثّاني المجرورُ بحرف ﴿عَن﴾، **وثالثًا**: ضمير ﴿وَلَا هُمۡ يُنصَرُونَ﴾.

فالاستثناءُ بالنِّسبة إلى هذه الثَّلاثة استثناءٌ متَّصل؛ أي: إلّا مَن رَحِمَهُ الله تعالى مِن الموالي؛ أي: فإنَّه يأذَنُ أن يشفع فيه، ويأذن للشّافع بأن يشفع، كما قال تعالى: ﴿وَلَا تَنفَعُ ٱلشَّفَٰعَةُ عِندَهُۥٓ إِلَّا لِمَنۡ أَذِنَ لَهُۥۚ﴾ [سبأ: 23] وقال: ﴿وَلَا يَشۡفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ٱرۡتَضَىٰ﴾ [الأنبياء: 28].

ويصحُّ أن يكون الاستثناءُ منقطعًا؛ لأنَّ مَن رَحِمَهُ الله تَعالى ليس داخلًا في شيء قبلَه ممّا يدلُّ على أهل المحشر، والمعنى: لكنْ مَن رحمَهُ الله سُبحانَهُ لا يحتاج إلى مَن يُغْني عنه أو يَنْصُره.

ومؤدَّى المسلكَيْنِ واحدٌ؛ لأنَّ مَن رحمَهُ الله تعالى مِن الموالي لا بدَّ أن يكون مؤمنًا، وأن يَشْفَع في مؤمن، وذلك بحسب ما تقرَّر في نصوص الوحي فيما يخصُّ الشَّفاعة.

ودلالته أنَّه لمّا نفى الإغناءَ؛ استثنى منه فقال: ﴿إِلَّا مَن رَّحِمَ ٱللَّهُۚ﴾؛ أي: أراد المَلِكُ الأعظَمُ إكرامَه، وهم المؤمنون يشفعُ بعضُهم لبعضٍ بإذن الله تعالى في الشَّفاعة لأحدِهم، فيُكرمُ الشّافعَ فيه بقبولِ شفاعته، ويُكرمهُ بقَبولهِ الشَّفاعة فيه[1]، وهذا تعظيمٌ لقيمة الإيمان، وأنَّه سببٌ جالبٌ لرحمة الله العظيم، فلا ينفعُ سلطانٌ يومئذٍ ولا مالٌ ولا بنون.

نكتة التَّعبير بالموصولِ وصلته في ﴿مَن رَّحِمَ ٱللَّهُۚ﴾:

عُبِّر بالاسم الموصول وصلته في قوله تعالى: ﴿مَن رَّحِمَ ٱللَّهُۚ﴾؛ لبيان أنَّ الوصفَ الذي تضمَّنتهُ جملة الصِّلة هو العلَّة في الحكم، فإنَّ سببَ استثنائهم مِن عدم قبول الشَّفاعة منهم أو فيهم هو كونُهم قد شَمِلَتْهُم رحمةُ الله تعالى في الدُّنيا بالهداية للإيمان، وفي الآخرة بالفوز بالجنان.

الفائز مَن شَمِلَهُ الرَّحمنُ برعايته، وأحاطهُ برحمته وعِنايته

(1) البقاعي، نظم الدرر: 42/ 18.

نكتة حذف عائد الصِّلة من ﴿رَّحِمَ﴾:

أهلُ الإيمان أهلٌ لأنْ تَسَعَهُم رحمةُ الرَّحمن

حُذِف عائدُ الصِّلة؛ وهو ضميرُ النَّصب مفعولُ ﴿رَّحِمَ﴾، والتَّقدير: إلّا مَن رحمه الله تعالى؛ اختصارًا وإيجازًا، إذْ ذلك أخصَرُ مِن أن يقول (رحمه) أو (رحمهم)، وفيه تعميمٌ لكلِّ مرحوم.

وثمَّ وجهٌ آخرُ؛ وهو أنَّ حذفَ العائدِ جَعَلَ فعل الرَّحمة مباشرًا للاسم الأحسَنِ دونَ أن يفصِلَ بينَهُما فاصل، وهذا دليلٌ على كمال هذه الرَّحمة وسَعَتِها، وأنَّها قريبةٌ وشاملة، فلا يَخْسَرُ ظلَّ دوحَتِها ويخرجُ مِن ساحتها إلّا المحرومُ المشؤوم المذموم، الكفور الملومُ.

سرُّ إيثار التَّعبير بعنوان الألوهيَّة دون الرُّبوبيَّة في ﴿رَّحِمَ ٱللَّهُۚ﴾:

الرَّحمةُ لمَن خضعَ لله وخشعَ لعظمته، والسُّخط لمَن خرجَ عن طاعته

أوثرَ التَّعبير بعنوان الألوهيَّة في قوله تعالى: ﴿إِلَّا مَن رَّحِمَ ٱللَّهُۚ﴾ في هذا السِّياق دون الرُّبوبيَّة - الذي قد يُتَوهَّم أنَّ التَّعبير به أقرب؛ لِما في الرُّبوبيَّة مِن معاني الخَلْق والرَّزق والتَّدبير والعناية والرِّعاية واللُّطف أو نحوه - ؛ لأجل إعلام مَن يبلغهُم القرآنُ أنَّ رحمة الله تعالى لا تُنال إلّا بتوحيده وعدمِ الإشراك به، لا في ألوهيَّته، ولا في ربوبيَّته، ولا في أسمائه وصفاته، وللرَّدِّ على المشركين الذين أقرّوا بتوحيد الرُّبوبيَّة دون الألوهيَّة، فهذا المسلكُ في العبادة لا ينفعهم ولا يُغني عنهم مِن الله شيئًا، فلا يُنصَرون ولا يُرحَمون.

كما أنَّ في التَّعبير بالألوهيَّة حثًّا على العبوديَّة دلَّ عليه السِّياق؛ فلا يُرْحَمُ في ذلك اليوم إلّا مَن ارتقى إلى هذا المقام المعظَّم والمنزل المكرَّم مقامِ العبوديَّة؛ فخضعَ لسلطان الحقِّ سبحانه، وذلَّ لعظمته، أمّا مَن عَلا وتجبَّر، وعَتا وتكبَّر؛ فله السُّخطُ يومَ لا يُغْني أحدٌ عن أحدٍ شيئًا، ولا يَمْلِك أحدٌ لأحدٍ شفاعة.

علَّة فصل قوله: ﴿إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ﴾ عن سابقه:

فُصِل قوله: ﴿إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ﴾ عن سابقه؛ لأنَّه استئنافٌ بيانيٌّ؛ فلمّا كان ما تقدَّم دالًّا على تمام القدرة في الإكرام والانتقام،

تـقـريـرُ كـمـالِ الـقُـدرةِ الإلهيَّةِ وسعَةِ الحكمةِ الرَّبّانيَّةِ

وكان الإكرام قد يكون عن ضعف، قال نافيًا لذلك ومقرِّرًا لتمام القدرة اللّازم منه الاختصاص بذلك: ﴿إِنَّهُۥ هُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ﴾[1]، فيكون بين الجملتين شبهُ كمالِ الاتِّصالِ؛ لأنَّ ما تقدَّم يبعثُ في نفس المُتلقِّي سؤالًا عن تعيين مَن رحمَهُ الله تعالى؛ فبيَّنَ سُبحانَهُ في هذه الآيةِ أنَّهُ عزيزٌ لا يُكرِهُهُ أحدٌ على العُدولِ عن مُرادِه؛ فهو يَرْحَمُ مَن يَرْحَمُه بما تقتضيه حِكْمَتُهُ سُبحانَهُ[2].

دلالة توالي المؤكِّدات في فاصلة الآيَة:

توكيدُ الأخبار في سياق مُجابهة الإنكارِ

جاء قول الله تعالى: ﴿إِنَّهُۥ هُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ﴾ مؤكَّدًا بجملةِ مؤكِّداتٍ؛ وهي: التَّعبيرُ بـ (إنَّ) التي تقوم مقام تَكرار الجملة مرَّتين مع الاختصار والإيجاز، والتَّعبير بضمير الفصل المُفيد للتَّوكيد لا القصر؛ لكون القصرِ مستفادًا مِن سبيلٍ آخر، وأسلوبُ القصر بتعريف الجزأين؛ وهو مِن طُرُق التَّوكيد، واسميَّةُ الجملة المفيدة الثُّبوتَ؛ وهو مِن مسالك التَّوكيد كذلك.

وكثرةُ هذهِ المؤكِّدات جاءَتْ في معرض توجيه الخطاب للمشركين المنكرين للبعث القائلين: ﴿إِنۡ هِيَ إِلَّا مَوۡتَتُنَا ٱلۡأُولَىٰ وَمَا نَحۡنُ بِمُنشَرِينَ ۝٣٥ فَأۡتُواْ بِـَٔابَآئِنَآ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ ۝٣٦﴾ [الدخان: 35 - 36]، فقال سبحانه: ﴿إِنَّ يَوۡمَ ٱلۡفَصۡلِ مِيقَٰتُهُمۡ أَجۡمَعِينَ﴾، وأكَّد أنَّهم لا يتناصرون ولا يُرحمون ما داموا مُصرِّين على الكفر حتى ماتوا مشركين! بخلاف المؤمنين الذين تشملُهُم رحمةُ الله تعالى بفضله ومشيئته.

فلمّا كان الكلامُ موجَّهًا إلى مخاطَبينَ منكِرين؛ ناسبَ توكيدهُ بأكثرَ مِن مؤكِّد.

بلاغة القصر بتعريف الجزأين في ﴿إِنَّهُۥ هُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ﴾:

تـقـريـرُ دعـوةِ المؤمنينِ وتكذيبُ دَعْوى المشركينَ

جاء القصر بتعريفِ الجزأين في قوله تعالى: ﴿إِنَّهُۥ هُوَ ٱلۡعَزِيزُ

(1) البيضاوي، أنوار التنزيل: 5/ 103، والبقاعي، نظم الدُّرر: 42/ 18.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 25/ 313، والبيضاوي، أنوار التنزيل: 5/ 103.

ٱلرَّحِيمُ﴾ لإفادة التَّقرير والتَّوكيد أنَّه سبحانه وحده مَن يملك العزَّة؛ فيُعزُّ مَن يشاء مِن عباده ويَقهرُ مَن يشاء، وهو كذلك مَن يملكُ الرَّحمة لا يملكها مِن أحدٍ سواه؛ فيرحمُ مَن يشاء مِن عباده، ويعذِّبُ مَن يشاء.

ففيه تأكيدٌ لِما كان يدعو إليه المؤمنون، وفيه تكذيبٌ لما ادَّعاه المشركون، فقد ضلَّ عنهم ما كانوا يفترون، وبطلَ ما كانوا يعبدون، ﴿فَمَآ أَغۡنَتۡ عَنۡهُمۡ ءَالِهَتُهُمُ ٱلَّتِي يَدۡعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مِن شَيۡءٖ لَّمَّا جَآءَ أَمۡرُ رَبِّكَۖ وَمَا زَادُوهُمۡ غَيۡرَ تَتۡبِيبٖ ١٠١﴾ [هود: 101].

معنى التَّعريفِ والمبالغة في ﴿ٱلۡعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ﴾:

عزيزٌ في نقمتهِ مِن أعدائه، رحيمٌ بأحبّائهِ وأوليائه

التَّعريفُ في قوله تعالى: ﴿ٱلۡعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ﴾ للاستغراق؛ أي: استغراق صفة العزَّة والرَّحمة، فلله سبحانه الكمالُ المطلقُ في الاتِّصاف بهاتين الصِّفتين، ويؤيِّدُ ذلك ورودُهما على صيغة المبالغة تأكيدًا للكمال.

سرُّ إيثار التَّعبير بالعزَّة دون المغفرة:

بيانُ عظيم الرَّحمةِ المصحوبةِ بتمام المُقْدِرَة

أوثِرَ التَّعبيرُ بالعزَّة دون المغفرة في قول الله تعالى: ﴿إِنَّهُۥ هُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ﴾؛ حيث إنَّه لمّا كان ما تقدَّم دالًّا على تمام القدرة في الإكرام والانتقام، وكان الإكرامُ قد يكون عن ضعفٍ؛ قال ﷺ - نافيًا ذلك ومقرِّرًا تمامَ القُدرة -: ﴿إِنَّهُۥ هُوَ﴾؛ أي: وحدَه ﴿ٱلۡعَزِيزُ﴾؛ أي: المنيع الذي لا يَقدح في عزَّته عفوٌ ولا عقاب، بل ذلك دليلٌ على عزَّته، فإنَّه يفعلُ ما يشاء فيمَن يشاءُ مِن غير مبالاةٍ بأحَد[1].

دلالة إتْباع صفة العزَّة بصفة الرَّحمة:

الجمعُ بينَ الترهيب والترغيب

لمّا قُدِّم الحديثُ عن عدمِ إغناء مولًى عن مولًى إذا أراد الله سبحانه عذابَهم ولا هُم يُنصرون؛ قُدِّمت صفة العِزَّة - المستفادَةِ

(1) البقاعي، نظم الدُّرر: 42/ 18.

من اسمِهِ ﴿ٱلۡعَزِيزُ﴾ - التي تدلُّ على ذلك المعنى، ولمّا كان العزيزُ قد لا يرحَمُ حيث تمنَعُه عزَّتُه مِن ذلك؛ قال تباركت أسماؤه: ﴿ٱلرَّحِيمُ﴾؛ أي: الذي لا تمنَعُ عزَّتُه أن يُكرِم[1]، فجمعَ في الآية بين ذِكرِ قُدْرَتِه سبحانه وبحمده على تعذيب مَن عصاه، وبين رحمةِ مَن أطاعه.

بلاغة المناسبة في ختمِ الآيةِ بهاتين الصِّفتينِ الجليلتين:

اللـه سبحانه مَلَك بالعزَّة، ومَنَّ بالرَّحمة

خُتِمَت الآية الكريمة بإثبات صفتي العزَّة والرَّحمة لله العليِّ العظيم، فقال الله سبحانه: ﴿إِلَّا مَن رَّحِمَ ٱللَّهُۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ﴾. "وهاتان الصِّفتان من صفاتِ الله، التي يتجلَّى بها الله ﷻ على أهل المحشر يوم القيامة، فبعزَّتِه سبحانه يملكُ أمرَ هذا اليوم، ويقضي فيه بما شاءَ في الظّالمين، وأهلِ البغي والعدوان، فلا يكون لهم مع سلطانِ الله سبحانه سلطان، ولا مع عزَّتِه عزَّة، وبرحمتِه سبحانه يُدخلُ مَن يشاءُ مِن عباده الجنَّة، ويُضفي عليهم ما يشاءُ مِن فضله وإحسانه، كما يقول سبحانه: ﴿يُدۡخِلُ مَن يَشَآءُ فِي رَحۡمَتِهِۦۚ وَٱلظَّٰلِمِينَ أَعَدَّ لَهُمۡ عَذَابًا أَلِيمَۢا ٣١﴾ [الإنسان: 31]"[2].

❁ الفُروقُ المُعجَمِيَّةُ:

الميقات والميعاد:

الميقاتُ أخصُّ مِنَ الميعادِ

المعنى المحوريُّ لجذر الميعاد يدلُّ على الاحتواءِ على ما يوجدُ مستقبلًا زائدًا عن الحال[3]، والميعاد: وقتُ الوعدِ وموضِعُه[4].

والمعنى المحوريُّ لجذر الميقات يدلُّ على تحديدِ زمنٍ معيَّنٍ دقيقٍ لإيقاع الشَّيء[5]، والميقاتُ: الوقتُ المضروبُ للشَّيء، والوعدُ الذي

(1) البقاعي، نظم الدُّرر: 42/ 18، وأبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 65/ 8، والآلوسيّ، وروح المعاني: 13/ 12.

(2) عبد الكريم الخطيب، التفسير القرآني للقرآن: 13/ 210.

(3) محمد جبل، المعجم الاشتقاقي: (وعد).

(4) الخليل، العين، وابن منظور، اللسان: (وعد).

(5) محمد جبل، المعجم الاشتقاقي: (وقت).

جُعِلَ له وقت[1]؛ لذا أوثِرَ لفظُ (الميقات) دون (الميعاد) في قول الله ﷻ: ﴿إِنَّ يَوْمَ ٱلْفَصْلِ مِيقَٰتُهُمْ أَجْمَعِينَ﴾؛ أي: وقتُ جَمْعِ الخلائق للحُكم بينهم الذي ضُرِبَ لهم في الأزَلِ وأُنزِلَت به الكتبُ على ألسنةِ الرُّسُل[2]؛ فهو وقتُ ما وعدَهُمُ اللّهُ به[3]، وهو وقتٌ محدَّدٌ لا يَعلمُهُ إلّا الله ﷻ، وأوثِرَ أيضًا في قول الله ﷻ: ﴿إِنَّ يَوْمَ ٱلْفَصْلِ كَانَ مِيقَٰتًا ۝١٧﴾ [النبأ: 17].

ويتبيَّن ممّا سبقَ أنَّ الميعادَ والميقات يكونان بمعنى وقتِ الوعد، ولكنَّ الميقات خُصَّ بالتَّحديد الدَّقيق للزَّمن الذي لا يُتخَلَّف عنه؛ وكونُ يومِ الفصلِ ميقاتًا يدلُّ على تحقيق وقوعِه ووقوعِ ما فيه؛ إذ التَّوقيتُ لا يكونُ بزمَنٍ محقَّقِ الوقوع؛ وفي هذا ردٌّ على تكذيبهم، أي: ليس تكذيبُكم به ممّا يحملُنا على تغيير إبّانِه المحدَّدِ له، ولكنَّ اللّهَ مستدرجُكم مدَّةً، وفي هذا إنذارٌ لهُم بأنَّه لا يُدرَى لعلَّه يحصلُ قريبًا؛ قال الله تعالى: ﴿لَا تَأْتِيكُمْ إِلَّا بَغْتَةً﴾ [الأعراف: 187]، وقال تعالى: ﴿قُلْ عَسَىٰٓ أَن يَكُونَ قَرِيبًا ۝٥١﴾ [الإسراء: 51][4].

(1) الراغب، المفردات: (وقت).
(2) البقاعي، نظم الدرر: 18/ 41.
(3) الآلوسيّ، روح المعاني: 13/ 129.
(4) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 30/ 30.

عنوان الكتاب:
موسوعة التفسير البلاغي، المجلد الرابع والخمسون،
سورة الزُّخرُف من الآية 37 إلى سورة الجاثِية الآية 15
مجمع القرآن الكريم بالشارقة، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
*
التنفيذ والنشر: منشورات القاسمي، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
سنة الطبع: 1447هـ - 2026م
©حقوق الطبع والنشر محفوظة لمنشورات القاسمي
الطبعة الأولى: 2026م
*
الفهرسة الوصفية أثناء النشر:
مكتبة الشارقة العامة، هيئة الشارقة للكتاب، الشارقة، الإمارات العربية المتحدة

227.366
م ق. ت
التفسير البلاغي للقرآن: المجلد الرابع والخمسون، سورة الزُّخرُف من الآية 37 إلى سورة الجاثِية الآية 15
[إشراف مجمع القرآن الكريم، قسم الدراسات والبحوث ؛ المدير العلمي امحمد صافي المستغانمي].-
الشارقة، الإمارات العربية المتحدة : منشورات القاسمي، 2026.
مج. 54 ، 802 صفحة؛ 24x17 سم.
ردمك : 978-9948-655-02-2
يشتمل على ارجاعات ببليوجرافية.
مج. 54 : المجلد الرابع والخمسون، سورة الزُّخرُف من الآية 37 إلى سورة الجاثِية الآية 15.
1-القرآن - تفاسير نحوية 2- القرآن، بديع 3- القرآن، بلاغة 4- القرآن - سور وآيات 5- القرآن-
ألفاظ أ- العنوان ب - مجمع القرآن الكريم (الشارقة، الإمارات العربية المتحدة).
قسم الدراسات والبحوث

الترقيم الدولي : 978-9948-655-02-2
*
إذن طباعة رقم: MC-03-01-8769435 بتاريخ 2026/01/07م،
الهيئة الوطنية للإعلام، الإمارات العربية المتحدة
*
الفئة العمرية : E
"تم تصنيف وتحديد الفئة العمرية التي تلائم محتوى الكتب وفقاً لنظام التصنيف العمري
الصادر عن المجلس الوطني للإعلام"
*
الطباعة: AL Bony Printing Press - Sharjah, UAE
الإخراج الفني: عاصم محمد زكي "النجار"